

التوجيه الدلالي في الحكاية العربية بين المقصدية والتأويل: "نموذج من المستطرف"

The semantic orientation in the Arabic story between intention and interpretation: "A model of almustatraf".



د. عطوي محمد الهادي
(جامعة باجي مختار - عنابة)

Email : m.attoui@yahoo.com

الملخص

نعالج في هذه الدراسة التطبيقية موضوع التوجيه الدلالي في تحليل الخطاب، هذا الموضوع الذي يتعلّق بمعانيّة الوجود الدلالية المتغيرة والثابتة في الخطاب، لاسيّما في السياق الثقافي والسميائي، خاصة إذا عرفنا أنّه موجه إلى متلقّ خاص، وهو محلّ الخطاب الذي يبحث عن الدلالات الأعمق في الفهم، والأقرب قبولاً وإقناعاً. ولذلك فتأويل رمزية الدلالة هو سبيل لفهم واقعتها وإجاءاتها عبر مراجعتها النصّية، ورموزها من خلال السياقات النصّية وخارج نصّية؛ بغية تحليل جيّد للخطاب؛ لفهم أفعال المتكلّم وتأويلها.

ومن أجل ذلك نحاول الإجابة عن الأسئلة الآتية: هل الخطاب مقاصد مشتركة الفهم بين المتحاورين أم أنّ الوصول إلى الغرض يتحقّق بالفهم والتأويل؟ وهل ما يفهمه المتلقّي العادي هو ما يفهمه ويصل إليه محلّ الخطاب؟ وكيف يمكننا تعيين دلالة ما يقوله المتكلّم وما يأنّعه المحلّلون المتأولون؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا البحث؛ لتبيين خصائص التوجيه الدلالي فيه، ولتمثّل كفاءات تشكّل الدلالات تصوّراً، وتكيّفاً وتأويلاً.

الكلمات المفتاحية: التلقّي الدلالي، الدلالة لتعيينيّة، التحلّل الدلالي، الرمزيّ

Abstract

In this study, we discuss the subject of "semantic orientation" in discourse analysis. It examines Variable Meanings and fixed faces in the cultural and semiotics context especially when addressed to a particular receiver, who is the discourse analyst. This latter searches for deeper connotations in understanding, acceptance and persuasion. Therefore, the interpretation of the symbolic meaning is a way to understand the reality and its implications which are interpreted through its intertextual references and its symbol of textual and extra textual contexts. The analyst in this context looks for a deep analysis of the discourse in order to understand the acts of the speaker and interpretation. To illustrate the characteristics of semantic orientation, and to represent the modalities that form the meaning of perception, adaptation and interpretation, three main quests this research seeks to answer: is the speech a common goal of understanding between the interlocutors, or is reaching the intention achieved by understanding and interpretation? is the ordinary recipient understands what the discourse analyst understands and reaches? And how can we define the meaning of what the speaker says and what the analysts say?

Key words : semantic reception ; designated meaning ; semantic transformation ; symbolism".

اخترت هذه الحكاية (الأبشيهي، 2003، ص 80-81)؛ لدراسة متغيراتها الدلالية، وكيفية
اعتمالها عبر النظام اللغوي والدلالي النشيط، ذلك أنّ تقبّل هذه الدلالات يبقى
صعباً؛ لأنّه يبقى دائماً بحاجة إلى التكيّف مع قصد المتكلّم، ويسعى في الوقت نفسه
إلى تكوين دلالي مناسب، يكشف عن قيمة التشكيل فيه تعييناً ظاهراً غير مرهق،
وتأويلاً يسائر قدرة الوعي والإدراك والفهم الجيّد. وليكون المتلقي في سياق الموضوع
نعرض عليه القصة:

"حكى أنّ "هند" ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها، فُصف للحجاج
حسنها، فأنفذ إليها يخطبها، وبذل لها مالا جزيلاً، وتزوَّج بها، وشرط لها عليه بعد
الصدّق مائتي ألف درهم، ودخل بها. ثمّ إنّها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة،
وكانت هند فصيحة أدبية، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدّة طويلة، ثمّ إنّ الحجاج رحل
بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله، ثمّ دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في
المرآة وتقول:

وَمَا هُنْدُ إِلَّا مَهْوٌ عَرَبِيَّةٌ سَلِيلَةُ أَفْرَاسٍ تَحَمَّلَهَا بِمُحَلٍّ
فَإِنْ وَلَدَتْ فُحْلاً فَلَمْ يَلِدْ دُرّاً لَمُتَوَيْنَ هَلَا فُجَاءَ بِهِ الْبَغْلُ

فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به. فأراد الحجاج طلاقها
فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر، وأنفذ لها معه مائتي درهم، وهي التي كانت لها عليه.
وقال: يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ولا تزد عليهما. فدخل عبد الله بن طاهر عليها
فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج: "كُتِّ فَبِنْتُ"، وهذه المائتا ألف درهم التي
كانت لك قبله. فقالت: اعلم يا ابن طاهر، إنّنا والله كنّا فما حمدنا، وبنا فما ندمنا،
وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها بشارّة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف. ثمّ بعد
ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف جمالها، فأرسل إليها
يخطبها، فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه: "اعلم أمير المؤمنين أنّ الإناء
ولغ فيه الكلب". فلمّا قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها، وكتب إليها يقول:
"إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليفسله سبعا، إحداهنّ بالتراب، فاغسلي الإناء يحلّ"

الاستعمال". فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الشئ عليه: يا أمير المؤمنين، والله لا أحل العقد إلاّ بشرط ، فإن قلت: ماهو الشرط؟ قلت: أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشيا حافيا بحليته التي كان فيها أولا. فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكا شديدا، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك. فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب، وامثل الأمر ولم يخالف، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز، فتجهزت وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند. فركبت هند في محمل الزفاف، وركب حولها جواربها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها، فجعلت هند تتواغد عليه، وتضحك مع الهيفاء دايتها، ثمّ إنها قالت للهيفاء: يا داية اكشفي لي سحف الحمل. فكشفتها، فوقع وجهها في وجه الحجاج فضحكت عليه، فأنشأ يقول:

فَلَمَّ تَضَحَّكِي مَنِّي فِي طُورِ لَيْلَةٍ تَرَكْتُكِ فِيهَا كَالْقَبَاءِ الْمَفْرَجِ

فأجابته "هند" وهي تقول:

وَمَا نَزَبَ إِلَيَّ إِذَا أَوَّاحَدًا سَلَحَتْ بِمَا قَلَنْدَاهُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ نَشَبِ إِذَا التُّنُوسُ وَقَاهَا اللَّهُ مِنْ عَطَبِ فَلَمَّا لَمْ مَكَّنَّ سَبَّ وَالْعُزُّ مَوْجَعَ

ولم تنزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة، فرمت بدينار على الأرض، ونادت : يا جمال إنّه قد سقط منّا درهما فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجد إلاّ دينارا، فقال: إنما هو دينار، فقالت : بل هو درهم، قال: بل دينار، فقالت: الحمد لله سقط منّا درهم، فعوّضنا الله دينارا، فخجل الحجاج وسكت، ولم يرد جواباً، ثمّ دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها، وكان من أمرها ما كان".

تمهيد:

نشير أن الخطاب يفتح بالتأويل على كثير من الدلالات تتنامى بشكل تصاعدي ودينامي، وهذا ما تنتجه طبيعة المدونة السردية التي تتميز بتسلسلها المنطقي في بناء الأحداث وتطورها، فهي تقع في مفاصل كبرى تشكل مراحل الخطاب الأساسية. وفي خضم هذه المراحل النصية يفعل "الرمزي" فعله في التكتيف الدلالي والسنن العلاماتي (و الرمزي تقنية مشفرة يتعارف عليها المتحاورون الذين هم من إيديولوجية موحدة، تقوم على تمثيل المتصورات بالرموز تمثيلاً حسيّاً معنوياً). ثم إنَّ الفحص التأويلي يسري بنا ويعرج في ربوع الخطاب وفضاءاته؛ لوصف عمليات التحول في العلاقات النصية وخارج النصية؛ لمعرفة السعة الدلالية التي يمكن أن يفتح عليها النص، خاصة بجلاد الرمز الذي تنشأ عنه البنيات التصورية لتمثيل دلالات الخطاب في الفهم الألي، أو التأويلي.

أولاً- تمفصل الخطاب وتشكل أحداثه :

1 - التمفصل الأول: تشمل هذه المرحلة المشوقة الوصف الانفعالي التأثيري في بناء الأحداث وتوجيهها.

2 - التمفصل الثاني: مرحلة بداية الصراع ، والتحول النفسي والذهني القائم على الرمز والقياس والمجاز.

3 - التمفصل الثالث: وهي مرحلة ردود أفعال المتحاورين، تمثل الدلالة بالتمثيل الرمزي.

4- التمفصل الرابع: طبيعة النهاية، حيث معرض الدلالة بين الفهم والوهم. والحيلة والاحتيايل.

أ- الانفتاح الدلالي:

نعالج مسألة الانفتاح الدلالي من خلال التمفصلات التي بادرنا بذكرها، حفاظاً على البناء الزمني والمنطقي لأحداث القصة ، وبالتالي تحلية مراحل الخطاب

النصية للوصول إلى القيم الدلالية والتداولية المبنية على التجاوز والتوالد ، والتي قد تسفر عن جملة الاستفزازات السلوكية والأسلوبية، وهي التي تستوقف المتلقي في تحليله وتأويله في محطّات التواصل الثقافي، والسيميائي، والتاريخي عبر موسوعة المراجع المشتركة.

تبدأ القصة بسرد أحداث تخترقها فجوات زمنية مجهولة، هذه المرحلة التمهيدية تؤشر إلى الوضع الطبيعي المنتج في عالم النص، لتسهّل فاعلية الاندماج السريع مع الوقائع، وتمثّل العالم الواقعي، وتأويل - على القدر الممكن والمهيمن - الفرضيات الدلالية بشكل تدريجي توافقي قد يوحي بوجود منافرات، أو مفارقات، وهو ما قد يغري بحتمية الفهم والتأويل، والوعي والإدراك النسبي.

التمفصل الأول: الوصف التمهيدي: يتحدّث في قول الراوي:

- "حكى أنّ "هند ابنة النعمان" كانت أحسن أهل زمانها
- فُوصف للحجّاج حسنُها،
- فأنفذ إليها يخطبها
- وبذل لها مالا جزيلاً ، وتزوّج بها.
- شرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم، ودخل بها
- كانت هند فصيحة أدبية
- أقام بها الحجّاج في المَعْوَة مئة طويلة، ثم رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله.

هذه المفاصل النصّية علامات كامنة في الخطاب قابلة للتوالد والتفجير، فهي توحى بقابلية استنطاق النص واستنباط ما لم يُقلّه وفق القرائن النصية التي تُؤشّر ، مثلاً، على وجود علاقة غير حميمة بين "هند" و"الحجّاج"؛ لأنّ العلاقة بينهما لم تكن تفاعلية تواصلية يربطها الودّ والرحمة، بل كانت قائمة على الإعجاب والتفاعل النفسي، والبيّنةُ على ذلك الاّ دعاء الأُولى أنّ الحجّاج وصف له حسن المرأة وجمالها،

فأنفذ إليها من يخطبها دون أن يراها، فأجزل لها المال الوفير، فتم الأمر. هذه البداية تفتح فيها الدلالات على المتلقي؛ ليتصور ما شاء من المعاني التي قد تدور في خلده، فـ "هند" الجميلة تفردت عن نساء عصرها حسنا وجمالا وفصاحة، فاختارها "الحجاج" زوجا له بعد أن بذل لها المال؛ وتزوج منها، وعاش معها زمنا طويلا، ومن ثم فالتلقي ينتظر المخبوء بعد هذا الوصف، أي ما الذي ستقلمه هذه المؤشرات النصية؟ هذا المرتقب قد يشكل "دلالة تصوّية" (محمد غاليم، 2007، ص33). أي: التصور الذي يساعده على فهم المتواري من المعنى، فتتحدّد به منزلة المعنى وتمثّل له سوريا في مستوى البنية التصويرية التي تعمل على تمثيل معرفي يقوم عليه الفكر لدى الإنسان. حيث التركيز على الاستنتاج والإدراك في كثير من المواقف المثيرة التي قد تتصّف بها هند" أو "الحجاج" في أي لحظة من اللحظات بطريقة متوقّعة أو غير متوقّعة، ثمّ إنّ "هندا" أقامت مع زوجها طويلا، وهذا أحد الأدلّة الأخرى التي قد تكشف ظنونا كثيرة في الخطاب بقصد أو بغير قصد.

التمفصل الثاني: ميلاد الأزمة (الصراع):

يبدأ التطور التدريجي في أحداث الخطاب بعد البيان التمهيدي، حيث يضرب الاستقرار النفسي، ويتزعزع التواصل بين أطراف المتحاورين، و يتجلى الدخول في دائرة الصراع عبر هذه الصورة التعبيرية المؤثرة والمستفزة في الوقت نفسه : ثمّ دخل

عليها - يقصد الحجاج- في بعض الأيام وهي تنظر في المرأة وتقول:

وَمَا هُنْدُ إِلَّا مَهْوٌ عَرَبِيَّةٌ سَلِيلَةٌ أَفْرَاسٌ تَحْمَلُهَا بِغُلٍّ
فَلَمَّا وَلِمَتْ فُحْلًا فَلَمَّ دُرَّهَا لَمْتَوَيْنِ هَلَا فُحْءٌ بِهِ الْبُغْلُ

تحيل هذه البنية التصويرية في هذا المقام إلى طبيعة العلاقة المتوتّرين الزوجين، ولعلّ أشلّها عند "هند"، إنّّه "الندم" على هذا الزواج، إنّ ما تلفّظت به "هند" كان مضمرًا في أعماق نفسها، هذا المسكوت لم يفضحه إلّا ذلك الشعور الرهيب أمام المرأة التي عكست كلّ الخبايا التي كانت تعمل في نفس "هند"، ومن ثمّ فالقدرة

التصورية لدى المتلقي قد تقوده إلى فهم نسق تمثيلي من خلال وعي هذا النفور وإدراكه وفق ما يؤشر به السياق:

ب- التحول الدلالي:

إنّ الفجوات الزمنية المسكوت عنها تمثّل نقلة نوعيّة في الخطاب السردى عبر التحوّلات النصية؛ لأنّ الواقع يظلّ مخبوءاً، والذي يحضر هو العالم النصي الذي اختصر العلاقة بين "هند" و"الحجاج"، ولم يصف حقيقتها، ولكنّه يريد أن يقولها بطريقة أخرى، ويشغل المتلقي بالتحقيق بوساطة أسئلة الفهم التأويلي؛ وخاصة ببلوغ البيتين. هذا التمثيل الرمزي تأرجح بين لازم معنى التعالي عند "هند" وملزوم معنى التدني "للحجاج"، ولا يكون حاصل ذلك إلّا باستحضار المراجع والسياقات؛ لتحديد العلامات وتفكيك شفرات الكلام، فالتمثيل الرمزي "المهرة والبغل والفحل" تجاوز العلامة الأصلية وأدخله في النموذج الرمزي الجماعي، ذلك لأنّه يشترط "المعرفة المشتركة

لضمان نجاح الاتصال" (عبد السلام عشير، 2006، ص41) لأنّه لو كان بعيداً عن المواضعة لغاب الفهم وتلاشى التواصل بين المتحاورين. فقد تحوّل "الحجاج" البعل إلى "بعل"، ومولوده المنتظر "الفحل أو البغل"، هذا الحدث الرمزي غدّي بالمفارقات والتقابلات، وجعل حاصل المعنى منعكساً على ردود أفعال "الحجاج"، فتتجت عنه التمفصلات الآتية:

- فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها (وهذا هو الغضب)
- فأراد الحجاج طلاقها فأنفذ إليها رسولا (عبد الله بن طاهر)
- طلقها بكلمتين (كنت فبنت)، المرجع.

- وأنفذ لها معه مائتي درهم (دفع صداقها) إهانة هند.

إنّ انفعال "الحجاج" حجة على تأثره بكلام "هند"، وقد تشكّلت هذه المناورة الخطائية في بعد التمثيل القياسي في مستوى الترميز، التمثيل الذي تمّ عبره تجاوز

الدلالة الطبيعية إلى دلالة أكثر فاعلية وتأثير، فالطابع التأويلي عند "الحجاج" جعله يقف عند العناصر الضرورية بفضل ما يملكه من قدرة تصوّرية سمحت له بوعي الدلالة الخفية للخطاب، حتّى أدرك القصد، أو ما يعرف "بالمقصدية". وهي دلالة تستدعي الانتقال من مستوى الإخبار إلى مستوى التمثيل حينما نتجاوز الدلالة الطبيعية إلى الدلالة غير الطبيعية بالبحث في المرتكزات الخطائية والسياقية، والطابع التأويلي لهذا المستوى يفرض آليات مغايرة، ومقاربة دقيقة للوقوف عند العناصر الضرورية التي تسمح بتحلية الدلالة الخفية للخطاب (سعيد جبار، 2013، ص135). وهذا دليل على ما تفعله اللغة من انفعال وردود أفعال تعكس الحقيقة النفسية المثيرة. أمّا توجيه ردة فعل "هند" في جوابها: "إِنَّا وَاللّٰهُ كُنَّا فَمَا حَمَدْنَا، وَبَنَّا فَمَا نَدَمْنَا" فيبيّن بحقّ أن الحبل بينهما لم يكن متينا، بل عاشت ولم تعرف له فضلا ولا منزلة، حتّى إذا سمعت كلمتي الطلاق حمدت وما ندمت، ثمّ تمنح صداقها للرسول الذي أتى لها بالبشارة - كما وصفتها - وهي علامة إضافية على ما كان بينهما من نفور متواصل، وقد تخلّصت منه والغيط يملأ قلبها حتى دعت به بقلب بني ثقيف، وفي ذلك احتقار للرجل، وهو، أيضا، لم ينشأ من فراغ. هنا بدأت الأزمة النصية للخطاب بوجود المنافرات والتقابلات النصية والنفسية التي تعكس نقائص الذات، وهذا دليل على ميلاد أزمات أخرى أكثر حدة وتعصبا. هذا التحوّل الدلالي ولد بفضل الصياغة الرمزية المستمدة من اللغة ومن حياة الإنسان ليقدّم إichاءات جديدة، وأن غاية التأويل هي تحرير المعنى، أي: الانعتاق الدلالي، وتخليص الحقيقة من الوهم واللبس.

التمفصل الثالث: المخزون الدلالي الموسوعي:

أي المراجع التاريخية، والثقافية، والاجتماعية التي ينهل منها المتحاورون مادة أفكارهم، ويعملون على تحيينها وفق الطرائق العقلية الراهنة بما تستجيب له لحظة التلقي ومقاصد الدلالة.

ج- تداخل الخطابات:

تتيح هذه التقنية للراوي إمكانية تغيير وتيرة السرد حتى لا يملّ السامع أو القارئ (محمد باري، 2013، ص376)، لما يتضمّنه من قدرة على البيان والتشويق؛ لأنّ ما يميّز هذا الخطاب التعدّد البنوي الذي تتداخل فيه أجناس أخرى كالشعر والحديث. إنّ هذا التعدّد الخطابي يؤشر على وجود وظائف نصيّة جديدة في عالم النصّ؛ وهو بالضرورة سينفتح على سياقات متغيرة وغير مستقرّة، وهو ما يجبرنا على التأويل النصي المرتبط بالزمن، والمعرفة والاستعمال؛ لتحقيق الفهم من خلال إستراتيجية التأويل عبر الشروط اللسانية والتداولية. هذه الإرغامات اللسانية والثقافية للنص تقابلها معرفة موسوعية للقارئ؛ لأنّ التأويل يخضع لاستراتيجيات نصيّة وقراءات واعية (محمد بوعزة، 2011، ص57). فلا نكتفي بمهّمة الذات العارفة، بل لا بدّ أن تكون مؤوّلّة؛ لأنّ الذات العارفة هي التي تستقبل المعرفة بالتحصيل، وتفهمها من طريق العادة والاسترجاع. أمّا الذات المؤوّلّة فهي الذات المفكّرة فيما تعرف. (عمارة ناصر، 2007، ص15) من الخطابات ومراجعته.

1-1 - الخطاب الشعري:

للشعر لغة خاصة تميّز من لغة النثر وغيره، لعلّه يضمن الجانب التأثيري الانفعالي الذي يشمل اللذة والإمتاع إلى ردود أفعال أخرى مؤثّرة في سلوك المتلقّي واستجابته في التلقّي.

1-1-1- الرمزي في لغة الشعر:

يتعلّق الرمز في الحكاية بالمواقف الحاسمة، فهو لا يشيع على النصّ، بل يظهر في مواضع انتقال دلالي مهمّ وقد ارتبط بالخطاب الشعري تارة، والنثر تارة أخرى حسب المراجع المنتقاة للتعبير عن الدلالة الحاسمة، فهو يختصّ بلغة الشعر التي "تثير وتحرّك وتفاجئ وتدهش وتَهزّ الأعماق" (أحمد محمد معتوق، 2006، ص 143)؛ وأعذب الخطابات الشعرية ما قام منها على المجاوزة في أصل الوضع بخلق عرف لغوي جديد؛ لأنّ لغة الشعر إيحائية رمزية تبتعد بالمعنى بغير حدّ، هذا البعد الممتد يوقعه في الاتّساع، كونه حمّال وجوه في المعنى، ويتمثّل ذلك في بيتي هند:

وَمَا هُنْدُ إِلَّا مَهْوٌ عَرَبِيَّةٌ سَلِيلَةٌ أَفْرَاسُ تَحَلَّلَهَا بِغُلٍّ
فَلَمَّا وَلِمَتْ فُحْلًا فَلَمَّ لَهُ دُرَاهُ لَمْتَوَيْنِ هَلَا فُحَاءَ بِهِ الْبُغْلُ

إنّ الحوار الذي جرى بين هند ونفسها، هو صوت ضميرها وليس حوارا تفاعيا مع الآخر؛ فهي لم تختَر محاورا. ولم يكن لغاية تواصلية، وإنّما كان من قبيل حديث النفس، إذ تتحوّل هذه الصورة المقلّمة من مجرد هيئة وإنجاز لغوي إلى قضية نفسية، وموقف شعوري يلوح بوجود المنافرة، وانعكاس نقائص الذات، ثمّ إنّ قيمة التشكيل الدلالي في البيتين كانت وراء الاختيارات اللفظية وطريقة التآليف بينها في نسق ترابطي بديع، حيث تمّ شحن التراكيب اللغوية بطاقة انفعالية رهيبية عبّرت من خلالها "هند" عن استيائها وازدراءها لزوجها "الحجاج".

أما سماع "الحجاج" للبيتين فقد خلق ردود أفعال انفعالية وقويّة؛ لأنّه فهم معنى الازدراء من طريق الانتقال إلى الرمزية، وإطلاق سراح المعنى من كلّ قيد متواضع عليه، إنّ سماعه لهذا الوصف كان مصادفة، فكان صدمة له، لذلك هاجت انفعالاته، وطاش عقله، وخرج غضبانا حنقا، لأنّ ما فهمه من المعنى ليس مجرد وصفه بالبغل، بل هي ذمّ مطلق، ودلالة غير محدودة للقبّح، والرداءة والوضاعة؛ ولذلك تجاوز الشعر هنا التأثير الانفعالي، وهو الألم النفسي الذي تجاوز "الحجاج" إلى التأثير في سلوكه وأفعاله.

1-1-2- المتعالي "المزي":

لعل ما تشكّل في هذا الحديث النفسي وما نجم عنه من فعل وانفعال حدث في صمت بطريقة غير مباشرة لم تلتق فيها أطراف الحوار، هذا التعالي ضرب من الرمزية الدلالية التي تشعر بالندم والأسى؛ لأنّ هذه الجميلة كانت تنظر في المرأة وهي تندب حظّها من هذا الرجل الذي لم ترض عشرته والحياة معه. ولكن لِمَ كانت تحلّث نفسها بصوت عال مادام الحديث حديث نفس؟

ربما أنطقتها الحسرة والأسى لما رأت جمالها في المرأة، وبخلت به على الحجاج، فضيّعته على من لا يستحقّه. أمّا صدمة الحجاج فتتجلى في سماعه لهذا الكلام الذي ملأ قلبه غيظاً وحقدًا، فانصرف وقد بيّت عزم الطلاق، وقد يدلّ على تأثيره العميق لما سمعه من تمثيل قاس، وهو التمثيل بالبغل، وهو رمز كلّ همجي قبيح لا تحسن عشرته. إنّ ما عبّرت به "هند" كان حقيقة نفسية توترها، ولكن آليات التعبير اللسانية عندها كانت مشحونة، فلمّا تلقّاها "الحجاج" بخي عليها فهمه، فكان الانعكاس في مستوى الفهم، فكان هذا التمثيل الإيحائي إضافة للمعنى، فانعكس على عواطفه وسلوكه؛ لأنّ التقدير عنده زاد على "الدلالة التعيينية" بفضل تأويل الرمز؛ والدلالة التعيينية هي التي لا تحتاج إلى أي مجهود تأويلي. أي: يتعيّن فهم الدلالة من دون إعادة قراءة الأنساق وفق احتمالات جديدة تلزم توفر نواة دلالية أولى تشكّل منطلقاً لعملية بناء هذه الاحتمالات والحدوس. (محمد بوعزة، ص78). أي: إنّ فهمه لا يحتاج إلى أي جهد تأويلي. فالتمثيل الملزوم "هَندُمُ هَرة"، والحجاج الذي تحللها "بِغُل" لزم عنها الانفعال القويّ الذي صرفه عنها، فكان الطلاق. ويزداد التعالي الأسلوبى ظهوراً وغلبة في بيتين آخرين، حينما أنشدت "هند" رداً على "الحجاج":

وَمَا نَبَإِي إِذَا أَوَّاحَدَنَا سَلَحَتْ
بِمَا قَقَلَدَاهُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ نَشَبِ
فَالْمَالُ مَكْتَسَبٌ وَالْعِزُّ مَوْجَعٌ
إِذَا النُّفُوسُ وَفَاهَا اللَّهُ مِنْ عَطَبِ

فبالغة تتكلم، ولكنها تقدم إيجاء عن منجزها، وإن كان في ظاهر القول أن "هندا" لا تبالي بما فقدته من مجد وسلطان ومال؛ لأنها كانت تستفز الحجاج وتذكره بمكانتها وما آل إليه الوضع الجديد، فهي تُزفّ إلى الخليفة الآن، هذا الإشعار بسلامة الروح، وعدم اللامبالاة بما ضيَّعته من العز تستدلّ به على أفضلية رتبها الجديدة، بل وتعاليتها على "الحجاج"، فهي تتباهى وتتعالى في ذكر ماضيها وحاضرها. ومن ثمّ فالشعر هنا ليس للذة والإمتاع، وإنما تجاوز هذا الموقف الانفعالي "للتأثير في سلوك المتلقي وأفعاله" (ألقت كمال الروبي، 2007، ص125)؛ لأنّ "هندا" بالغت في اللعب والمواغدة، ولعلّها بهذه المحاورة الشعرية تزيد في حدة الصراع بينهما إلى حدود لا متناهية.

وعلى الجملة فالخطاب الشعري في مقام هذه القصة النثرية جاء لإثبات أغراض المخاطبين وتعبيراتهم، فقام على المجاوزة اللغوية، التي يتوهج من خلالها المخبوء من الدلالة ليزداد ثراء وتوالداً، يكشف بالتحليل، ويدرك بالتأويل.

1-2- الخطاب السردى:

إذا كان الخطاب الشعري يضمن الدلالة الإيحائية، بفضل مؤثراته الإيقاعية، ودفقاته الشعورية، واللغة الرمزية والاستعارية التي تكفل العدول في الكلام، وتجعل الكلام حمّال أوجه، فإنّ الخطاب السردى ليس مجرد تقرير للأحداث، فقد يكون رهنا لكون من نظام العلامات الذي يحتاج إلى فهم وتأويل.

1-2-1- الذخيرة التناسية:

تمثّل هذه الذخيرة المخزون الفكري والثقافي، وكلّ الأنساق الدلالية والسميائية التي تجعل المتلقي يفهم تلك التواضعات والمراجع والتي تكفل له التواصل والتفاعل مع "الذخيرة التناسية" (أمبرتو إيكو، 2005، ص187-188)، ولذلك يتكفّل السياق النفسي بدمج الطاقة النفسية والذهنية لفهم المقصود من الكلام فكانت ردة

فعل "الحجاج" عنيقة بسماع ما عيّره به "هند"، فمقولة "الحجاج": "كنت فبنت"، تجمع بين الماضي والحاضر، وبين الكينونة والبينونة، وهو نتيجة لما رأى وسمع، هذا التقابل الرمزي الإيحائي يجمع بين أمرين للدلالة على نقض الميثاق بينهما، "فكنت" بمعنى كنت زوجة، و"بنت" بمعنى صرت طالقا، هذا التمثّل الدلالي يجبرنا على فهم "دلالة الاستعمال النصّي"؛ لتحقيق موقف شخصي يردّ به الاعتبار لنفسه كما كان يتصرّف. إلاّ أنّ البلاغ كان بشارة لهند ولم يحزنها، ويظهر ذلك في التقابل الخطابي من قولها: **إِنَّا وَاللَّهِ كُنَّا فَمَا حَمَدْنَا، وَبِنْتُ فَمَا نَدَمْنَا**. ويكمن النسق التفاعلي للدلالة في هذه العبارة في رمزية الرّدّ وهذا يعني أنّ "هندا" كانت تفهم ذلك السنن المتواضع عليه في العرف الاجتماعي والديني، وأنها كانت ضمن النسق المعرفي الذي حوّل لها الجمع بين التقابلات بطريقة تجعل الكلام جديرا بالنظر والفهم، فهي تناظر "الحجاج" وتحاججه في قوله، إنّ ذلك الماضي الذي كان أسرا لها ووبالا عليها، ولم يكن محمودا، وأنّ الحاضر أصبح حريّة لها وجنة تحتمي بظلالها.

1-2-2- أسئلة الفهم الرمزي في الذخيرة التناسية:

يندمج هذا الشكل الخطابي الرمزي الموجز داخل منظومة عامة للعمليات المعرفية التي تحقّق الفهم، وهي منظومة تسمح بالإحاطة بكلّ الحقول المعرفية التي تدور في فلك الفن الشامل للقول الذي تحدّد طبيعة السؤال المعرفي والإدراكي والذهني الذي يتطلّب تعميق النظر، وإطالة التدبّر فيما نسأل، أي أنّ العلم المعرفي يبدأ من المستوى المعرفي الذي يتعلّق بالمعطيات الداخلية المتعلقة بالذاكرة الخلفية والخارجية (السياقات والمقامات والظروف العامة للقول)، ثمّ يتحوّل إلى المستوى الإدراكي، حيث تكون الاستجابة الأولى للتصرّف المعرفي، وهي المرحلة التي تقود إلى المستوى الذهني، حيث استقبال المعلومات وتخزينها، وكلّ ما هو قابل للفهم الحرفي لأشكال اللسانية حيث يتمّ التأويل في إطار استقرائي عبر منطوق القول والسياق،

ويتكفل الشكل المعرفي بالتأويل التداولي للقول، بغرض تحقيق التأويل الكامل.(عبد
السلام عشير، ص25-32)ومن ثمّ نتمثّل إجاباته في الآتي:
أ - سؤال المعرفة:

كيف يعرف الإنسان ما يعرف؟ هذا الذي يتحقق المثلث العارفة، "فهند" لمّا
استقبلت كلام "الحجاج": "كنت فبنت" فقد عرفت مصدره وتأويله، أي كانت لها
معرفة عن حقائق كانت موجودة، ودخلت معها مباشرة في تفاعل من طريق حدسها
للعلاقات بين الموضوعات، فأجابت: "كذّا فما حمدنا وبذّا فما ندمنّا" وهذا هو
الدليل المعرفي الذي يؤكّد اندماج "هند" ضمن الإيديولوجية التواصلية، والمرجعية
التاريخية التي يحيل إليها الكلام الذي اقتطع من كلام معاوية بن أبي سفيان حينما
طلّق زوجه ميسون ابنة بحدل، فقال لها: "كنت فبنت" فأجابته: "ما سرنا إذ كذّا،
ولا أسفنا إذ بذّا" (علي محمد محمد الصلابي، 2008، ص27).ومن ثمّ أمكن "هند"
فهم الإهانة التي قصدها "الحجاج"، وقد ساعدها في ذلك تلك المحصلات
والمكتسبات التي استدعاهها مقام الكلام، فما أشبه هذه بتلك!

ب - سؤال الإدراك:

كيف يدرك الإنسان ما يعرف؟ أي ما البنيات والعمليات التي تجعلنا ندرك ما
عرفناه؟ استطاعت "هند" أن تجعل هذه المعرفة في متناولنا من خلال تكوينها الأدبي
والاجتماعي والتاريخي، فقد كانت الذاكرة عوناً لها لاستحضار النص الغائب المتزاح،
ولفضحها النص الحال المقتطع من حديث "معاوية بن أبي سفيان". هذه البنية الأولية
المسبقة خلقت في المقام الراهن أشكالاً رمزية تحسيسية، تستبطن بفضلها المقاصد
الدلالية القائمة في الذهن، فإن كان "الحجاج" ينهل من ذلك المورد، فإنّ "هندا" تعلم
محاله ومصدره، وهذا أيضاً إرباك للحجاج لأنّ مقصد الإهانة عنده فشل بتحقيق
علمه عند "هند".

ج - سؤال الذهن:

كيف يتحقّق الإدراك داخل الذهن؟ أي كيف يشغل الذهن؟ يتحقّق إدراك المعنى أو الدلالة بمدى فاعلية الإدراك والفهم، والقدرة على الإحاطة بالمحتويات وترتيبها واستنتاج المقاصد العامة لمضمون الخطاب، إذ تعمل آلة القياس على جعل الفهم ينبثق من خلال الاستقراء، فتكون نتائجه استنباطية، كأن تقوم على استدلالات تفضي بمنطقية الوصول إلى المعنى المرجّو في عملية التأويل، وهو ما توصلت إليه "هند" عندما علمت أنّ معاوية الزوج لم يكن مرغوباً فيه على الرغم من النعيم الذي كانت تعيشه "ميسون"، فقد دخل عليها يوماً فسمعها تترنم في حדרها فأنصت إليها فإذا هي تقول :

لبيّت تخفق الأرواح فيه	أحب إلي من قصر منيف
وبكر يتبع الأظعان شقياً	أحب إلي من بغل زفوف
وكلب ينبح الطارق عني	أحب إلي من قط أليف
ولبس عباءة وتقر عيني	أحب إلي من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي	أحب إلي من أكل الرغيف
وأصوات الرياح في كل فج	أحب إلي من نقر الدفوف
وخرق من بني عمي نحيف	أحب إلي من عالج عنيف

فلما سمع "معاوية" ذلك منها قال : ما رضيت ابنة بجدل حتى جعلتني علجاً عنيفاً، ثمّ طلقها وأمر لها أن تأخذ كلّ ما في القصر (المرجع السابق، ص 27). وهو الأمر الذي ينطبق على "الحجاج" نفسه، فقد كانت "هند" تبغضه وتزدريه، فلما سمع منها تلك الإهانات طلقها لردّ الإهانة بمثلها أو أكثر منها، إلّا أنّ "هنداً" استعانت بدهاء "ميسون" وجراًتها، وفصاحتها، وشجاعتها لردّ الاعتبار إلى نفسها وإغاظة "الحجاج".

1-3- الحديث الشريف:

نلامس جزئياته من آلية الاقتطاع وليس باعتباره نصاً من الكتاب أو السنة، وهو ما نسميه - في الغالب بالتناسل - أو ما نصطلح عليه "بالاستعمال النصي"،

ويكون لموقف أو غاية محدّدة. فقول هند: "اعلم أمير المؤمنين أنّ الإناء ولغ فيه الكلب". اقتطاع من حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم " إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا إحداهن أو أولاهن بالتراب". وسبب الغسل نجاسة لعاب الكلب. وهي نجاسة مغلّظة، وإنّما قالت: "الإناء ولغ فيه الكلب"، وهي تقصد "الحجاج". ولكنّها تقصده لمعنى لا لذاته، هذا المثال يوحي بأنّ "هندا" شخصية عارفة وفاهمة، تعدل عن أصل اللغة وتمتص مقصودها من معرفتها الدينية، وهو السياق المعرفي الذي يساعد المتلقي على إدراك الدلالات بفضل انخراطه في تلك الذخيرة المرجعية، كما يساعده وعيه على التوقع الحيّد لتمثّل المقصود من الدلالة، أو التكيّف مع محتواها الاحتمالي المهيمن. هذه الإحالة إلى النص الغائب تنشأ فضاء جديدا فكّرت فيه لتهين "الحجاج"؛ لأنّ تمثّلها الداخلية كانت وراء كثافة الإيحاء وتقلّص التصريح، والبعد التداولي - ههنا - يلزمنّا بمعرفة ما الذي تريده "هند" لا ما تعبّر عنه، فهو ليس مجرد انفعال لموقف شخصي أو نفسي، بل يتعداه إلى تعرية الآخر وتبيين حقيقته، وإظهار الملامح "الدنيا" للدلالة على النموذج الحيواني في صورته المقزّزة. والذي يواجهه المتلقي هو "القدرة الموسوعية التي يتضمّنّها النصّ، وهي مخزون ضمني يفترضه النصّ ضمنيا ويعصرنه القارئ" (فيرناند هالين وآخرون، 1998، ص50). فمرجعية الرمز اقتطعت من نص الحديث لاستعماله في الموقف الشخصي، وهو تمثيل قياسي جرى بعد تخليص النص الأصلي من هوامش الوحي، فأصبح مدلول "الكلب" الذي كان في أصل الوضع حقيقة مجازا .

1-3-1-الأفق الترميزي في التناس:

تبين اللغة الرمزية قدرتها على التشكيل والتعبير والإيحاء، فهي نظام من العلامات الدالة التي تنمو وتتطور وتتفاعل، وتتجاوز المكتوب والمفوض لتشمل الصور والهيئات والأحوال والإشارات، والعلامات التي تدخل في شبكات من العلاقات العائمة المكونة للنظام السيميائي. فقد فهم الخليفة القصد من الكلام، هذا الطابع التأويلي يدل على دخوله في السنن المعرفي، وأن ذاته المفكرة ترجمت الرمز وفككته وبلغت الفهم، وتمثلت الصورة، وفهمت المراد، وأدركت أن مقالة "هند" مبالغة وتهويل للموضوع، ولكنه حاول تطويرها وإقناعها بالزواج، فقال لها: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً، إحداهن بالتراب، فاغسلي الإناء يحل الاستعمال، وفي ذلك علة دلالات، فالخطاب يتقاطع مع نصوص السنة النبوية الشريفة التي تقول بغسل الإناء سبعا آخرها بالتراب إذا ولغ فيها الكلب، يوحي هذا التناس بعلم الخليفة وفقهه، وسرعة بديهته، والثاني إصراره على خطبة المرأة على الرغم من دعواها، ثم إنه لم ير "الحجاج" كلباً - كما وصفته "هند" - وفي ذلك معرفة بطبع النساء التي لا حدود لها. إن النص الحاضر المقتطع من الحديث هو عدول واضح بالنسبة إلى النص الغائب الأصلي الذي هو معيار له، تجمعت من خلاله الدلالات حقيقة ومجازاً وتكاثفت وأفاضت المعنى التي ستكشف عن مكائد "هند" المدبرة ونقمها المحضرة. ثم إن الحوار الذي جرى بين "هند" والخليفة أوقع "عبد الملك بن مروان" بأن هذه المرأة جريئة، أدبية فصيحة، قادرة على الحجاج والمجادلة. فازداد شغفه بها. فإذا اندفعنا نحو هذه الحقيقة انطلاقاً من المعطيات خارج نصية، فالثقافي الدلالي يقودنا خارج النص لتمثل موقفاً نستدل به على رجاحة عقلها، قيل إنها قدمت يوماً على الخليفة "عمر بن عبد العزيز"، وكان قد حبس أخاها "يزيد"، قالت: يا أمير المؤمنين لم حبسته؟ فأجابها: تخوفت أن يشق عصا

المسلمين. فقالت له : فالعقوبة بعد الذنب أو قبل الذنب؟ فكان ذلك معيارا لرجاحة عقلها وفقهها. وقد قيل أنّها حدّثت عن أبيها - أحد رواة الحديث - كما حدّثت عن الحسن البصري وغيره (منصور عبد الحكيم، 2012، ص138). وهو من التمثّل المعرفي لدى "هند" وقوّ حجّتها.

التمفصل الرابع: الدلالة بين الفهم والوهم:

إنّما المرحلة الفن والواقعية، ونهاية الصراع عبر الأنموذج الرمزي المعنى، نوضّح عبر المفاصل الجزئية الآتية:

1-التقبّل الدلالي بين المتعة الفنية والحقيقة النفسية:

يرتبط هذا المعنى بطرفين مهّين في تلقّي خطاب، وهما المتلقّي والمتحاورون، وهنا تتجلّى القيمة الإبداعية للمتخاطبين نتيجة لمقدرتهم التخاطبية الفعّالة، ولكنّها قد تكون خالية من المتعة، ويجلب عليها الجانب الحسي والشعوري؛ لأنّ التخاطب في هذه المرحلة يعبر عن الواقع، فالموقف بين "هند" و"الحجاج" في هذا الخطاب مشحون بالانفعالات السلبية المتضادة، ومن ثمّ لا نتصور أن الخطاب ينشأ للمتعة، وإنّما ينجز للإبانة عمّا في النفس وما يجيش في الصدر. أمّا المتلقّي الذي يحظى بالمتعة الفنية فهو الذي يقرأ أو يسمع، ولا يعيش الموقف النفسي كما عاشه صانعه، وإنّما يعيش التجربة بنظرة أخرى: قراءة، أو نقدا، أو تأويلا، وهنا يتوغّل في ثنايا الخطاب ليتأوّل العوامل، ويحلّل العناصر بغية الوصول إلى مقاصد تداولية وحجاجية دقيقة وأكثر إقناعا لهذا التجربة. ففي الوقت الذي كان فيه "الحجاج" في ضيق وفي حرج، كان "عبد الملك بن مروان" في غاية الانشراح والانبساط مما تقوله "هند"؛ لأنّه كان معزولا عن تلك الصراعات النفسية الحرجة، فالخطاب إذن يجمع بين بعدين متقابلين: حقيقة نفسية قد تكون حرجة لحظة حدوث الفعل، وبين متعة فنية تريح المتلقي بعد سماع الحدث.

إنَّ المتعة الفنيَّة التي يحقِّقها الأثر الأدبي غير مطابقة للواقع، ولعلَّ هذا ما يثبته التأويل الفعَّال لكثير من الآثار الأدبية وغيرها؛ لأنَّ الحقيقة النفسية - كما في هذا النص - عند "هند" أو "الحجاج" تثبت أنَّ بينهما تنافراً واضحاً، وأنَّ هذا التنافر يغدِّيه شيء من الحقد و التمرّد، فكانت النتيجة الطلاق بينهما. فما قالته "هند" يهزُّ النفس ويضطرب العقل لفصاحتها ومقدرتها اللغوية والتعبيرية، ولكنه مع ذلك ينبأ بواقع مرير كانت تعيشه لم تكن لترضاه، بل تتأسف لحدوثه، وما فعله "الحجاج" هو ردّة فعل لذلك الإنكار والمحذور، وهو تألّم نفسي وإساءة اعتمدت في نفسه، ولا تتصوّر أنّه يُفصح للمتعة، إنّما يقول ليبين وتظهر معه القيمة التعبيرية ومنتهى الخطاب.

2- تجلّيات الرمزيّ في شخص الحجاج:

ليس "الحجاج" رمزا، وإنّما يتجلّى فيه التمثيل الرمزيّ حينما تقاس عليه التجربة، فهو في صورة من الصور التي شكّلتها "هند"، وهي صورة نغليّة مستقرّة نصيا، فقد أنزلته في صور تمثيلية تواضعية متعدّدة: صورة الكلب، وصورة الجمال، وصورة الدرهم. فقد أرادت أن تخرجه على هذه الهيئات ليتمثّل لها شكلا تعبيريّا توفّي به أصول المقاصد في الدلالة. هذا الامتصاص جعل على عدّة تماثيل هي التي شكّلت النظام التشفيري الرهيب الذي يؤشر باستقصاء دلالة التعرية، فهند تريد أن تجرّ الحجاج من إنسانيته وتصوره في هيئة موحشة متوحّشة، لذلك أصبح

"مستهدفا للذمّ" (رشيد الإدريسي، 2010، ص361)، وهو شفرة الانتقام المحتوم الذي تنشده هند.

أ - الكلب الرمزي: بني هذا الرمزيّ ليوحي "بفكرة أو شعور ما" (محمد فتوح أحمد، 1977، ص209)، وهو قائم على أساس التشابه الحسيّ، إذ غلب على الكلام الطابع الرمزي الذي يتستر من ورائه المراد من المعنى لغاية

بيانية تبينية، وللتعبير عن الموقف النفسي الراهن، وعن التجربة الشعورية الواقعية. فالكلب الرمزي هنا كلبان:

- كلب بني ثقيف ويستدلّ به على انحطاط رتبته في قومه، وهو مدّة القوم كلّهم.
- والكلب الوالغ في الإناء الكامن في "الذخيرة التناسية".
سكتت "هند" عن النطق باسم الحجاج ورمزت إليه بلفظ "الكلب" وفي ذلك دلالات غير متناهية أكثرها هينة: دلالة الاحتقار، والتدنيّ، والضعف. فقد حاولت "هند" أن تتمادى في إذلالها للحجاج؛ لتبين له أنّه لم يكن إنسانا محمودا. فهي التي تريد تجريده من كلّ شيء كما جاء أول مرة حافيا عاريا قبل أن يلبس شملة السلطان والإمارة. ويمكننا في هذا الموقف أن ننتزع موقفا نفسيا رهيبا يتميز بالتقابل والتباين، موقف تهبّ فيه نسيمات الارتفاع والاطمئنان والسرور، بسماع خبر طلاقها، ومشاعر مقابلة لها تتأجج فيها نيران الغيظ، والغضب، والاستياء.
ب - الجمال الرمزي: تحوّلت وظيفة الحجاج إلى "جمّال"؛ لأنها مرهونة بشرط الخطبة، هذا التحول الدلالي

حصل عبر العلاقات النصيّة ويتجلى في أسلوب النداء، الذي عدل عن المألوف، واختصّ بنداء "الحجاج الجمال"، لا الحجاج الزوج أو الأمير، وهو نداء رمزيّ نحّس بدلالات جديدة، تشير إلى تحول الوقائع، هذه العلامة السيميائية صنعتها "هند" واختارتها لتمثّل رمزيّ يتحقّق عبره المدلول الثقافي والمعرفي؛ لأنها استوحته من الذاكرة، "هذا التأويل يقبل بدوره تأويلا جديدا" (أمبرتو إيكو، ص188)، كأن تفهم مثلا النداء المتعالي، هذا الخطاب يكشف عن صورة مؤثرة "هند" التي تزفّ في الحل والحلل، و"الحجاج" العاري الحافي الذي يقود زمام الحمل، إنّها بالنسبة إلينا "نقاص"؛ لأنّ تحليل المعنى يلزمنا بتفكيك شفرات السنن المعقودة وحلّها لكشف ضروب السرّ في فهم عزيمة الانتقام التي توحى بوجود صراعات قديمة بين "الحجاج" و"هند".

ج - الدرهم الرمزيّ: جعلت هند من الحجاج معدنا رخيصة أمام رفعة الدينار وهو الخليفة، هذه القيمة الدلالية المحصّلة ليست مجرد الانفتاح على عالم التقابلات، بل إنّ

الرمز هنا أصبح من المرجعيات التي "تنشط وتكثف وتوسع أداة الإدراك لدى المؤل إلى أقصى حد ممكن" (محمود خليف خضير الحياني، 2013، ص 170)، وهو ما يجعل الفكر التأويلي يراقب هذه التمثيلات المشفرة، لاستنطاق الحقيقة المتوارية في صلب الخطاب. تتجلى دلالة القيمة؛ فالمفاضلة كانت واعية ومدبرة، بل اختيار قصدي وُهمي في الوقت نفسه، اتخذته المرأة سلاحاً للانتقام، هذه الوسيلة الرمزية القيمية تثبت ذكاء "هند" وحسن قياسها، وقوة الربط بين الأشياء. إن سكوت "هند" عن التعبير عن الواقعي يفتح آفاقاً جديدة للمتلقي؛ لتمثل المقصدية أو التكييف معها، ثم إن الدلالة المكيفة تتعارض مع الأصل أي مع قصد المؤلف، فكلام المخاطب حقيقة، والمعنى الذي يصل إليه المتلقي ضرب من الفهم والتأويل سواء أكان هذا المعنى صحيحاً أم فاسداً، ولكنه مع ذلك يحاول أن يتكيف معه قدر الإمكان لفهم حدود معانيه، وإن تجاوز إلى حدود تأويلية مغرقة في الفلسفة والإبداع، وهو ما حدث مع "هند" في هذا الموضع لمّا جعلت من الحجاج الجمال الرمز المعنى الذي سيأتي تبينه في العنصر الموالي (التعمية أو التشفير الدلالي). هذا ما كان في وصف هند التي رسمت الحجاج رسماً عبثياً ساخراً، ولكن القراءة التأويلية للخطاب تثبت أن "هنداً" على الرغم من مكرها ومكائدها فإنّ شخص "الحجاج" لا يخلو من قيمة، فهو رجل صعب المراس، بعيد الرأي. فصورة "الحجاج" بالاستنباط والاستدلال العقلي تجعله رمزاً لكثير من التماثيل، فهو مثال الرجل الشهم الذي لا يقبل الدلّ، وآية ذلك أنّه لمّا سمع "هنداً" تهينه وهي لم تره ولم تحس بوجوده، وعلى الرغم من ذلك طلقها؛ لأنّه كان بالإمكان التستر على الأمر، ولكنه عزم على الأمر بخلطها وطلق الجحّال معها. وهو الأديب الفصيح، يحسن القول والشعر، ويختار الكلام، ويوجز في القول، وعلى الرغم من قلّة كلامه في القصة فهو يظهر طرفاً فاعلاً فيها، وهو واسع الثقافة، ساعده علمه "بتفسير القرآن، ورواية الحديث، وحفظ أشعار العرب وأيامهم" (محمود زيادة، 1997، ص 34)، ويظهر ذلك في قوله: "كنت فبنت" وقد ذكرنا تحليله. وهو

رمز الرجل الموهوب المولع بالحرب والسياسة على غرار بعض القواد، فبلغ مراده ومراتبهم (المرجع نفسه، 1997، ص 27). ودليل ذلك ما اشترطت به "هند" لخطبتها أن يكون "الحجاج" عاريا حافيا في حلته الأولى، أي: كما جاء بلا جاه ولا سلطان. هذا المظهر الحسي المعبر به بالنشاط التخيلي بالارتداد إلى الماضي يجعل لتعربة الأمير "الحجاج" من عزه وسلطانه، وفي ذلك إهانة وانتقام منه. أما استدراجه فقد تمّ بأمر الخليفة، أي: إنّه كان مجبرا، ولولا ذلك الأمر لما أمكنها الاحتيال عليه.

رابعا- التعمية (التشفير الدلالي):

يتحوّل التجاوز اللغوي والسلوكي من حيلة دلالية تصويرية إلى حلية لغوية وأسلوبية، وذلك حينما يدخل الكلام في الوهم، فيعمي صاحبه عن الحقيقة، ويفهمه خلاف الأمر عندما يوظّف الأشياء توظيفا وهميا. فقد أصبحت "هند" تترك الحجاج كثيرا، وتقود المتلقي من موضع إلى موضع آخر من التهوين والانتقام والسخرية. والتعمية "تحويل نص واضح إلى نص غير مفهوم بطريقة محدّدة يستطيع من يعرفها أن يعود ويفهم النص" (محمد مراياتي وآخرون، 1996، ص 28)، أو أن يسلك المتكلم في كلامه التحويل والتشفير، فيعدل عن أصل التواضع في اللغة، فيرمز بها لإيقاع متحاوريه في الوهم، أو المغالطة في فهم المقصود. وهو ما اعتمدته "هند" في المحاوراة بينها وبين "الجمال" - الحجاج - استعانت بفاعلية "الهدم والبناء"، فقد طلبت من الجمال أن يرفع لها الدينار الذي أسقطته - قصدية الفعل - فهي بذلك هدمت الصورة الفعلية للدينار وحولته إلى درهم، وهو تحويل بالادعاء - وهمي - وليس حقيقيا، فبنت الصورة الجديدة التي خالفت المدرك الدلالي عند "الحجاج". هذه المتغيرات كانت بداية حقيقية للتشفير الدلالي الذي أشكل على فهم الحجاج وجعله صوب الصورة كما اعتقد بفهمه لها، خاصة لما عمدت "هند" إلى تغيير المسميات والأفعال وتبديلها لإطلاق المعنى وفرضه على ردود أفعال "الحجاج"، وبه يحدث الفرق؛ لأنّه لمّا التقط الدرهم المزعوم وجده دينارا، فأجاب بما أفضى إليه فهمه

وإدراكه على أنه دينار، وبذلك تمكنت "هند" منه وهي تعلم أنه ليس ساذجا في فكره وإدراكه وفطنته، وإنما تمكنت من استدراجه والإيقاع به في مكيدة معماة وفي غاية الخطورة. وقد أفضى هذا الحوار في الأخير إلى نقطة تحوّل مهمة في الخطاب، وهو ما كانت تنسجه "هند" بحيلتها المدبرة وحليتها اللغوية للوصول إلى مرادها، فآن لها أن تُكسر المشفّر في الأخير، وحلّ المعنى، وتحلّي ذلك في قولها: "الحمد لله سقط منّا درهم، فعوّضنا الله دينارا"، وهي لحظة حرجة يتحوّل فيها الكلام المعنى إلى كلام واضح، تمّ بفعل كسر التشفير (المرجع نفسه، ص 31). وتفكيك المرموز، وتبدّل الوهم. هذه اللحظة التي فهم فيها الحجاج سرّ هذا الأسلوب، فتوصّل إلى فهم ما تقصد "هند"، فهي لا تريد إلّا إذلاله وتعريته من شملته التي كان عليها من قبل، هنا يتحدّ مفهوم القيمة، حيث التحوّل إلى الرمزّي، فالدينار أرفع قيمة من الدرهم، وعليه يحدث التماس الدلالي، فهي تجمع بين الحجاج الجمال في رمز الدرهم مع عبد الملك بن مروان الخليفة، فقد طلّقت من الأوّل وعوّضها الله بالثاني وهو عندها أرفع من الأوّل. ما استقرّ الفهم عند "الحجاج" لم يردّ كلاما، وفي ذلك انتهاء للعبة خسر فيها "الحجاج"، وكان من وراء قصدها أشياء أخرى كالتباهي، والتعالي الذي يوحى بالانتقام والتشفي.

خاتمة:

على العموم التأويل النصي يتجاوز المعطيات النصية إلى معطيات أخرى خارج نصية أكثر سعة وشمولا ضمن الذخيرة التناسية التي توفر وظائف جديدة للتحكم في المتغيرات الدلالية. ومن ثم نشأ الاهتمام بمقاصد المتحاورين في القصة لا لفهم ما قالوه فحسب، بل لفهم ما أرادوا التعبير عنه. فقد شكّل "الرمزي" انفتاحا دلاليا بين النص وقارئه، ومن ثم تحرير الكثير من المعاني المشفرة بفضل القرائن السياقية والقابلية التأويلية. إن طبيعة التواصل الإنساني حقيقة أو مجازا، صراحة أو إيهاما، لا تتأتى إلا بتوحد المراجع العرفانية والسيمائية؛ لأن بلوغ الدلالة مسألة نسبية، وتأويلها مهمة معقدة، فقد يكون الخطاب انفعاليا؛ لأن المحتوى العاطفي هو الذي يوجه التكوين الدلالي وبقية التشكيلات. وبالتالي تمنح للخطابات مستويات متفاوتة القيمة فما يقصده المتكلم قد يقع في أفق توقع المتلقي، وقد لا يقع بمعنى قد يتجاوزه. أما محلل الخطاب فيمثل ويتمثل بفضل التكاثف الدلالي الذي غالبا ما يكون حملا أوجه فيحمل القول طاقات إضافية ويوجه الأكثر قبولا وإقناعا للمتلقي والاستقبال.

قائمة المصادر والمراجع:

أ - المصدر:

- 1- الأبيشي (شهاب الدين محمد بن أحمد)، المستطرف في كل فن مستظرف، تح: مصطفى محمد النّهي، دار الحديث، القاهرة، 2003.

ب- المراجع:

- 2- أحمد محمد معتوق، اللغة العليا : دراسات نقدية في لغة الشعر، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2006.
- 3- ألفت كمال الروبي، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، من الكندي حتى ابن رشد، دار التنوير، بيروت، 2007.
- 4- أميرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت: لبنان، ط1، 2005.
- 5- رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل: الحريري بين العبارة والإشارة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010.
- 6 - سعيد جبار، التحليل وبناء الأنساق الدلالية: نحو مقارنة تداولية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013.
- 7- الأبيشي، المستطرف في كل فن مستظرف، تح: مصطفى محمد النّهي، دار الحديث، القاهرة، 2003.
- 8- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير: مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، المغرب، 2006.
- 9- علي محمد محمد الصلابي، معاوية بن أبي سفيان: شخصيته وعصره، دار الأندلس الجديد، مصر، ط1، 2008.
- 10- عمارة ناصر، اللغة والتأويل: مقاربات في الهيرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي، الدار العربية للكتاب- ناشرون منشورات الاختلاف، الجزائر - دار الفارابي، لبنان، ط1، 2007.
- 11- محمد بآري، نظرية التأويل التقابلي، مقدمات المعرفة بدلية بالنص والخطاب، دار الأمان الرباط - منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013.
- 12- محمد بوعوّ، إستراتيجية التأويل من النصية إلى التفكيكية، دار الأمان، الرباط- منشورات الاختلاف- الجزائر، ط1، 2011.
- 13- محمد غاليم، النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة: مبادئ وتحليل جديدة، دار توبقال، المغرب، ط1، 2007.
- 14- محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، 1977.
- 15- محمد مرابطي وآخرون، علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب: دراسة وتحقيق لرسائل الكندي وابن علان وابن الدريهم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1996.
- 16- محمود خليف خضير الحياي، ما وراثية التأويل الغربي: الأصول المناهج المفاهيم، دار الأمان:المغرب- الاختلاف: الجزائر، ط1، 2013.

- 17- محمود زيادة، الحجاج بن يوسف الثقفي المفتري عليه، دار السلام، القاهرة، ط1، 1997.
- 18- منصور عبد الحكيم، الحجاج بن يوسف الثقفي طاغية بني أمية، دار الكتاب العربي، دمشق - القاهرة، 2012.
- 19- فيرناند هالين وآخرون، بحوث في القراءة والتلقي، تر: محمد خير البقاعي، مركز الانتماء الحضاري، حلب، 1998.